اعداد أ.م.د .خولة حسن يونس

آراء النقاد في قول كثير عزة ولما قضينا من منى كل حاجةٍ

نظر ابن قتيبة (ت276هـ) إلى الشعر وقسمه وفقاً إلى اللفظ والمعنى على أربعة أقسام ، و أحد هذه الأقسام ما حَسُنَ لفظه وحلا فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى (وهو القسم الثاني من اضرب الشعر الاربعة) كقول كثير عزة :

ولمّا قضينا من مِنى كلَّ حاجةٍ ومَسّحَ بالأركان منْ هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حدب المهارى ركابنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسارت باعناقِ المطيِّ الاباطحُ

فقد ذهب ابن قتيبة إلى أن هذه الأبيات عبارة عن مخارج حسنة ومطالع ومقاطع جيدة ، إلا أنك لو بحثت في معناها لا تجد فيها فائدة أي أنه نظر إلى الشعر على أنه قيمة أخلاقية أو دينية فقط ، وربما يعود السبب في هذه الرؤية لكونه قاضياً، ففسر هذه الأبيات بتقريرية مباشرة ، من دون الالتفات إلى الصورة الجميلة التي تنطوي تحتها ، فقال عند تفسيره لها : ((ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبِلَنا الإنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأباطح)) ؛ فهو يرى بأن الأبيات تصف لحظة انتهاء الحجاج من أداء مناسك الحج ، بما في ذلك مسحهم أركان الكعبة الأربعة التي تعد جزءا من المناسك .

أما ابن طباطبا العلوي (ت322 هـ) في كتابه عيار الشعر ، فذهب إلى أن هذه الأبيات مستوفية لما أراده الشاعر من معنى وهي جميلة لأنها تمثل استشعار قائلها لفرحة عودته إلى بلده بعد أن اكمل مناسك الحج.

أما ابن جني (ت392هـ) ، فقد خالف ابن قتيبة في رأيه هذا في كتابه الخصائص في باب(في الرد على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ و إغفالها المعاني) ، فقد ذهب إلى أن الأبيات جميلة في لفظها ومعناها وذهب إلى بيان جمالية مفرداتها اللغوية التي عبرت عن المعنى المراد بدقة ،فكل مفردة أضفت معنى خاصا على معنى هذه الأبيات فعندما قال الشاعر (كل حاجة) ،فهذا يعني إن حاجات مِنى كثيرة جدا وهي ليست مشعرا من مشاعر منى فحسب ، بل في قوله هذا ما يفيد منه أهل النسيب والرقة وذوو الأهواء ، ومن هذه الحاجات (التلاقي) (والتشاكي) و(التخلي) ، إلى غير ذلك من حوائج هذه القافلة التي قُضِيَتْ بعد مسح الأركان وما هو لاحق به ؛ للتقرب من الله سبحانه وتعالى.
أما البيت الثاني الذي فيه عبارة (اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) ، فيذهب ابن جني إلى وجود صورة جميلة جدا فيه، ويتعجب من رأي ابن قتيبة السابق وإن لم يصرح باسمه تأدبا وتواضعا فهو يقول بأن عبارة (أطراف الأحاديث) أقوى من عبارة (اخذنا الحديث) لأن اطراف الحديث تدل على كثرة الأحاديث ولطفها والتي تدور بين المحبين ؛ لأنه ((شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو الحديث بين الإلفين ،والفكاهة بجمع المتواصلين)).
وهو يرى بأن من لم يستشعر بجمال هذه الأبيات فقد جفا طبعه وقصُرَ نظره عن فهم هذه الأبيات بصورة صحيحة ،
والذي يثير الاستغراب من رأي ابن جني أنه لم يفصح لنا عن العلاقة بين الحج والغزل وسرور العائدين من الحج إلى بلادهم بالشكل الذي فسر فيه هذه الأبيات.

اما عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) الذي أعجب بهذه الأبيات في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) ، فقد أُعجِب بلفظها ومعناها في وقت واحد وأُعجِب برأي ابن جني كذلك ، وذهب إلى الكشف عن السرِّ في استحسان المتلقِّين لتلك الأبيات بالربط بين الأداء اللغوي فيها والمعاني التي تحتويها والاستعارة البارعة التي استعارها الشاعر لسلاسة سير الرواحل حين شبهها كالماء تسيل به الاراضي المنبسطة (الاباطح) ؛ ووصف سيرها بالسير السهل السريع، مما ادى الى نشاط الركبان الذي يؤدي الى ان يزداد الحديث طيباً ، ثم قال باعناق المطي ولم يقل بالمطي لان السرعة والبطء يظهران عادة في الأعناق فقال: "أوَّل ما يتلقَّاك من محاسن هذا الشعر أنه قال: "ولما قضينا من منى كل حاجة" فعبَّر عن قضاء المناسك بأجمعها، والخروج من فروضها وسننها من طريقٍ أمكنه أن يقصر معه اللفظ، وهو طريق العموم، ثم نبَّه بقوله: "ومسَّح بالأركان من هو ماسح" على طواف الوداع الذي هو آخِر الأمر، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر، ثم قال: "أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا"، فوصل بذكر مسح الأركان، ما وَلِيَه من زَمِّ الرِّكابِ وركوبِ الرُّكبَان، ثم دلَّ بلفظة "الأطراف" على الصفة التي يختصُّ بها الرفاق في السفر من التصرُّف في فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتطوِّفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوَّة النشاط، وفضل الاغتباط، كما توجبه أُلفَة الأصحاب وأُنسَة الأحباب، وكما يليق بحال مَن وُفِّق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حُسْنَ الإيَاب، وتنسَّم روائح الأحبَة والأوطان، واستماع التهاني والتحايَا من الخِلاَّن والإخوان، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه، وأفاد كثيرًا من الشواهد بلطف الوحي والتنبيه، فصرَّح أولاً بما أومأ إليه في الأخذ بأطراف الحديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل، وفي حال التوجُّه إلى المنازل، وأخبر بعدها بسرعة السير، ووطأة الظهر؛ إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، وكان في ذلك ما يؤكِّد ما قبله؛ لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع، زاد ذلك في نشاط الركبان، ومع زيادة النشاط يزداد الحديث طيبًا، ثم قال: "بأعناق المطي" ولم يقل: "بالمطي"؛ لأن السرعة والبطء يظهران غالبًا في أعناقها، ويبين أمرهما من هواديها وصدورها، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في الثقل والخفة".